تقنيات الفكاهة المريرة في شعر يحيي السّماوي (شعره المقاوم نموذجاً)

الأستاذ المشارك الدكتور جهانگير أميري
جامعة رازي - قسم اللغة العربية وآدابها - ايران
الأستاذ المساعد الدكتور نورالدين پروين
قسم اللغة العربية و آدابها – المعهد العالي للشهيد محلاتي (ره) - إيران
norudin.parvin@yahoo.com

Technigue of sqrcasm in Yahya Samavi's

Jahanghir Amiri
Associate Professor of Arabic Language and Literature, Razi University, Kermanshah,Iran
Norudin parvin
Associate Professor in Arabic Language and Literature at High Acadmy Al - shahed Mhlatye , Iran
Norudin.parvin@yahoo.com

الخلاصة:

المقصود بالفكاهة المريرة أو السوداء ذلك اللون من الفكاهة الّتي ترتبط بالحياة السياسية والاجتماعية للشاعر. لقد أخذت الفكاهة المريرة حيزاً كبيراً من الشعر العربي المعاصر. وقد استخدمها الشعراء للتعبير عن آراءهم السياسية والاجتماعية الّتي تحتك بمصير الشعوب والأحداث الّتي تجري علي الساحة.

من هذا المنطلق وظّف الشاعر العراقي الشهير يحيي السّماوي الفكاهة السوداء كآلية تعبيرية موحية لتحريك العواطف وإيقاظ الضمائر حيال ما خلّف الاستبداد والاحتلال من الدّمار والاضمحلال. هذا وقد عمد الشاعر إلي الارتقاء بمستوي لغته وإفرازاتها الدلالية باستمداده من القرآن الكريم وجمالياته الشكلية والدلالية. فأشعاره طافحة بالدلالات القرآنية قلباً وقالباً. وللدّلالات الرمزية في أشعاره مساحة واسعة تمنحها قوة وديناميكية. علي أية حال فقد كرّس الشاعر شعره الفكاهي لنشر ثقافة الصّمود والمقاومة وبثّ الصحوة الإسلامية بين الشعوب العربية والإسلامية. يرمي هذا المقال إلي دراسة وتحليل الفكاهة السوداء في شعر يحيي السّماوي بالاعتماد علي المنهج الوصفي – التحليلي وفي ضوء تقنيات الفكاهة المريرة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، يحيي السّماوي، الفكاهة المريرة، الاحتلال الأميركي للعراق، الأنظمة الاستبدادية.

Abstract:

Poems somotiones poet uses the humorous methods to express his criticism to political, social issues which he faces in his society, but sqrcasm carries pain and grief, it is why it has called bitter. The poet at first smiles, but the smile changes in to responsibility and reflection. The well- Known Iraqian poet, Yahya Samavi motivated emotions and thoughts due to colonizer, imposing regimes in the form of sarcasm. He has use Quran verses and the spiritual mystery to make the beautiful context and to enrich, to increase the poems. He is a revolutionized, Iraqian poet who has used all kinds at literary techniques due to Islamic awaking, in order to broadcast the resistance culture in Islamic- Arabic countries.

This study is describtive-analytical, it tries to examine sarcasm in Yahya Samavi's poems.

Key words : Quran, Yahya Samavi , sarcasm , the imposed Iraq by America , colonized regimes , Islamic a wakening .

المقدّمة

المعاناة الّتي خلّفها الغزو الأميركي أصبحت مصدر إلهام للشعر العراقي المعاصر. فنظر كلّ شاعر إلي هذه المعاناة حسب مواهبه الذاتية وتقنياته الشعرية. من أهمّ تقنيات الّتي استغلّها الشعراء العرب للتعبير عن المعاناة الناجمة عن الاحتلال الأميركي للعراق هو الفكاهة المريرة أو السوداء. شبّه بعض النّقاد الفكاهة السوداء بإنسان يحمل في وجهه ابتسامة باهتة وفي قلبه حزنٌ عميقٌ (حسين محمد، ١٩٧٠: ١٨) كما شبّهه بعض آخر بالسّراب الرقراق الّذي يجذب بلمعانه الفاتن، إنساناً اشتدّ به الظمأ نحوه لكنّه سرعان ما يجده الظمآن قاسياً عنيفاً لا رحمة فيه ولا إشفاق رغم ظاهره الخلّاب (المصدر نفسه، ١٩). وبصورة عامة بإمكاننا أن نشبّه الفكاهة المريرة بالدّواء المُرّ الذي يشفي المريض من دائه علي الرغم من أنّ مرارة الدواء تؤذيه البتّة.

نستطيع القول إنّ الفكاهة السوداء خلافاً لما نجده في مثال السّراب تنطوي علي فوائد جَمّة لا يستهان بها. هذه السخرية بالنّظر إلي طبيعتها المزدوجة تتمتّع بقدرات فنية هائلة يمكن توظيفها في القضايا الأساسية الّتي لا يريد الشاعر الإفصاح عنها بطريقة مباشرة صريحة. بما أنّ للفكاهة المريرة تأثيراً مذهلاً في شدّ انتباه الشعوب نحو أخطاءها وحثّها علي تصحيح مساراتها الخاطئة، أولاها الشاعر العراقي المناضل يحيي السّماوي١ كبير عنايته وبالغ اهتمامه حتّي باتت سمة من سمات شعره المقاوم. تتميز الفكاهة المريرة عنده بالامتزاج مع الرمز في كثير من النماذج. أضف إلي ذلك أنّه أخذ في فكاهته المزيد من جماليات القرآن الكريم اللفظية والمعنوية ما أدّي إلي إثراء الدلالة في أشعاره.

إنّه استخدم تقنية الفكاهة المريرة لإزاحة القناع عن الاجتياح الأميركي للعراق ومعطياته الكارثية. نظراً لتأثير الفكاهة الهائل علي نفوس المخاطبين في إثارة المشاعر وإنهاض الهمم والحثّ علي التفكير. استخدم السّماوي تقنية الفكاهة المريرة لكشف النقاب عن الصورة الحقيقية للاجتياح الأمريكي للعراق و معطياته الكارثية. والأسئلة الّتي يريد هذا البحث التوّصل إلي الإجابة عنها هي:

١- ما هي الرسائل الّتي يريد السّماوي إيصالها إلي المتلقّي عبر استخدامه للفكاهة المريرة؟

٢- ما هي الميزات الّتي تتميز بها الفكاهة السوداء في شعره المقاوم؟

سوابق البحث

بما أنّ يحيي السّماوي يعتبر شخصية أدبية مرموقة تجاوزت شهرتُها حدودَ البلاد تمّت حوله العديد من البحوث والدراسات تناولت نواحي مختلفة من شعره وشخصيته. إلّا أنّه لم يتم لحدّ الآن دراسة تختصّ بآلية الفكاهة المريرة في شعره نذكر فيما يلي بعض الأعمال الّتي أنجزت بشأن المقاومة والصمود في شعره مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ بين الفكاهة ومعاني الصمود والمقاومة لدي السّماوي علاقة وطيدة وصلة وثيقة:

معروف يحيي، (٢٠١٢ م)؛ دراسة وتحليل في المضامين الشعرية للشاعر العراقي يحيي السّماوي، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة الثامنة، العدد الرابع عشر.

نظري علي وميرزايي، وعزيزي، (١٣٨٩ ه.ش)؛ اشغالگري در شعر امروزين عراق (باللغة الفارسية) (الاحتلال في الشعر العراقي المعاصر) (٢٠٠٣ -٢٠١٠)، صص ١٥٨- ١٣٧.

دراسة الموضوع

يجد المتأمل في أشعار السّماوي المقاومة الّتي وظّفَ فيها آلية الفكاهة المريرة أنّ أبرز المحاور الّتي تتمحور حولها أشعاره هي كما يأتي:

١. الاحتلال الأميركي للعراق ومعطياته.
٢. الأنظمة العربية الاستبدادية.
٣. الأعمال الإرهابية والعنف.
٤. الشعوب العربية المنكوبة.
٥. عملاء الاحتلال وجنوده في العراق.

ونقوم فيما يلي بدراسة الفكاهة الّتي استخدمها السّماوي عبر المحاور الآنفة الذكر بادئين بالمحور الأول:

١. الاحتلال الأميركي للعراق ومعطياته

من المستغرب أنّ جنود الطّاغية لم يكتفوا بما فعلوه بالأحياء من القتل والتّعذيب في غياهب السّجون بل يحطّمون قبور الشّهداء أيضاً بدّباباتهم وقنابلهم. لّما يري السّماوي هذه الصورة البشعة سرعان ما يستخدمها كمادّة دسمة لخلق فكاهة سوداء يستنكر

ضمنها ما قام به المجرمون من الإساءة إلي جثث الموتي وتدمير مثواهم الأخير. يقول شاعرنا بهذا الصدد بنبرة ساخرة ربّما يخاف الاستبداد وجنوده من أن ينهض الأموات ويثوروا بوجه الاستبداد مدافعين عن وطنهم جنباً إلي جنب الأحياء دفاعا مستميتا! أو ربّما ضاقت علي الغزاة أرض الوطن بما رحبت فلم تعد تسعهم ولذا أرادوا توسيع نطاقها وبسط رقعتها بتحطيم القبور! استجابة لطموحهم وجشعهم في اغتصاب البلاد.

فالفكاهة السوداء الّتي نلمحها في المقطع الشّعري التّالي هو أنّ الوطن ليس آمناً للأموات ناهيك عن الأحياء وأنّ المحتلّين لأرض الوطن يهاجمون رفات الموتي الّتي لا حراك لها ولا حياة فما بالك بالأحياء:

السَرفات٢ دكت القبور / واستباحت الرّفات / أضاقت الأرض فلم تجدْ لهم مساراً / أم أنّها / تخاف أنْ ينتفضَ الأموات / تضامناً مع الجماهير الّتي أرخصت الحياة / ذوداً عن الأرض الّتي / دنّسها الغُزاة ؟ (السّماوي، ٢٠٠٦م: ١٢١)

مفردة «دكت» المستخدمة في المقطع السابق تذكرنا بآية كريمة وردت فيها الكلمة نفسها وهي: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ (الفجر / ٢١)

عندما ينظر شاعرنا إلي تمثال الحرية في أميركا لا يراه رمزاً للحرية كما يزعمه أصحاب العقول البسيطة والأفكار الساذجة يلمح الشاعر في قامة التمثال المشوقة صورة المشنقة التّي يشنقُ عليه الأحرار. تخيلَ السّماوي أيضاً النّبراسَ الّذي بيد التمثال نيراناً تحرق حقوق العالم فتحوّلها إلي هشيم تذروه الرياح كما يتخيله أيضاً سيفاً يقطع أعناق أباة الضيم الّذين يعزفون عن الاستسلام أمام زعماء البيت الأبيض.

لا يخفي أنّ الصّورة الجديدة الّتي يلتقطها عن تمثال الحرية تنطوي علي سخرية لاذعة وفكاهة سوداء تتمتّع بقدر كبير من الحقيقة عند أصحاب الضمائر اليقظة:

«أيها الرَّبُ الرّخامي المنتصبُ كالمشنقة / ليس مِشعلاً للحرّية ما ترفعه / إخفض يدك ... / فالبنتاغون يراه فتيلاً / لإحراق حقوق العالم... / وسيفاً لإستئصال رِقاب مَن يرفض الانحناء / لآلهة المعبد الأبيض» (السّماوي، ٢٠٠٩: ٩٠).

الأنظمة العربية الّتي تدور في فلك أميركا وتسبّح بحمدها أوحت إلي السّماوي بفكاهة مريرة. لقد تصوّرَ شاعرنا في مخيلته البيت الأبيض الّذي يسكنه الرئيس الأميركي

كعبة تطوف حولها الأنظمة الاستبدادية الموالية له. والأضاحي الّتي يقدّمها هؤلاء الحجّاج لكعبة آمالهم ليس من جنس الغنم والبقر والإبل بل القرابين الّتي يتقرّبون بها إلي معبودهم هي الأوطان والبلاد الخاضعة لسيطرتهم. بلغت السخرية في الصورة قمّتها حيث إنّ الشاعر يتمنّي لو عرف الآيات والأذكار الّتي يردّدها حجّاج البيت الأبيض عند طوافهم حوله:

آه لو أعرف / أية آيات يتلوها / حجّاج البيت الأبيض / حين يطوفون حول المكتب البيضاوي؟ / كلُّ ما أعرفه / أنَّهم يقدّمون الأوطان / أضحية وقرابين٣. (المصدر نفسه، ٢٠٠٩: ١٢٧)

تحدّث السّماوي وبلهجة ساخرة عن المكانة الّتي تلعبها عملة الدولار في عالمنا الحديث. فإنّها إله الأرض الّذي تُعبدُ مثلما يعبدُ ربّ السَّماوات والأرض. هي الحاكم الّذي تركع أمامه الشعوب برمتها. هي النبي المرسل الّذي تحمل رسالة ربّه إلّا أنّها ليس رسول لإله واحد، بل هي مبعوثة لأرباب متفرقة كربّ الحرية وربّ الحرب. الدولار هو الإله الذّي تُقدَّم إليه القرابين وهو الّذي من أجله تُشَنّ الحروب أو يتمّ الإعمار والبناء!

والرسالة الّتي يريد إيصالها إلي القارئ هي أنّ الذرائع الّتي يتذرّع بها الاستكبار العالمي للهجوم علي البلدان أعذار واهية، يريد بها تضليل الرأي العام أو التّعتيم الإعلامي أو التغطية علي نواياها القذرة. إلّا أنّه لا يطمح من وراء هذه الحجج سوي الوصول إلي المال أو الدّولارات المغرية. فهي الّتي تظل سيد المواقف كلّها وهي الّتي تتحكم بخيوط السياسة من خلف الكواليس.

ولها جاذبية تستلب القلوب وبريق يخطف بالأبصار فلا غرو إذاً أن يبيع قسٌّ دينه أو يخون قاضٍ الحقّ طمعاً في الحصول عليها:

جلالة الدّولار حاكمنا الجديد...ظلُّ اللّه فوق الأرض / مبعوثُ إله الحرب والتّحرير / له يقامُ الذّكر / تُنحرُ القرابين / وتُقرعُ الطبول / تُرفعُ الأستار

جلالة الدّولار / في ساعة الحساب يبقي وحده / الصانع للقرار / يجمع من يشاء يقسّم من يشاء، يطرح أو يضرب ما يوصي به الأحبار / يمكن أنْ ينوبَ عن فضيلة القاضي/ (السّماوي، ٢٠٠٦: ٦٤-٦٣).

الفكاهة المريرة الّتي تحويها اللّقطة الشّعرية السابقة هي أنّ الدولار هو الّذي يحكم العقول والضمائر والقلوب في العالم الّذي تتدّخل فيه القوي الكبري لتحرير شعوبها من مخالب الاستبداد والتخلّف، حسبما تدّعيه لكنّها لا تريد وراءها إلّا إرضاء مطامعها وإشباع جشعها بنهب ثروات البلاد وامتصاص خيراتها.

يتمنّي السّماوي لو غادر جنود الغزاة بلاده كي يعود إليها السّلام والأمان إذ أنّهم لم يستجلبوا إليه سوي القتل والنّهب والدمار. ولكي يصوّر الشاعر عمق المأساة والكارثة الّتي عاناها الشعب العراقي علي خلفية الاحتلال يرمز إلي المحتلّين بالذئب والسّل والجذام حيث إنّهم افترسوا آحاد الشعب منذ اجتياحهم العراق وتسلّلوا في كيانهم كداء السّل والجذام فنخروه كما ينخر السوس العظام.

وما يدعو إلي السخرية والمهزلة أنّ أوضاع العراق بعد الاحتلال تحوّلت من السّيئ إلي الأسوء فإذا كان صدّام يدمّر البلد وشعبه كالخنزير والطاعون بات الأمريكان يلتهمون العراق بما فيه شعبه وممتلكاته كالذئب المفترس والأوبئة الخبيثة الفتّاكة كالسّل والجذام! فبات مثلهم: «ضغث علي إبّالة».

فاخرجوا من وطني المذبوح شعباً / وبساتين / وأنهاراً وطينٌ / فاتركونا بسلام آمنين / نحن لا نستبدل الخنزير بالذئب / ولا الطاعون بالسّل / وموتاً بالجذام (المصدر نفسه، ٢٠٠٦: ٨).

من الملفت أنّ الشاعر زين تغريدته الشعرية بما اقتبسه من القرآن الكريم وهو:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر / ٤٦- ٤٥)

وممّا زاد اللقطة السابقة ظرفاً ولطفاً أنّ الشاعر استبدل «ادْخُلُوهَا» بـ «اتركونا» ليلمح إلي أنّ جنود الاحتلال لو تركوا العراق وشأنه لَتحوّلَ البلد إلي جنّة يغمرها الهدوء والسّلام.

خصوبة الأرض وجودة الطقس واخضرار الطبيعة في العراق جعلت بلد الرّافدين من أكثر البلاد إنتاجاً للتّمور والمحاصيل الزراعية إلّا أنّه بعد أن زحف إليه قوات «النّاتو» أصبح بلدا فقيراً كثرت فيه مظاهر القحط والجفاف والمجاعة، فإذا بالبلد الّذي كان علي رأس البلدان المصدّرة للتّمر والقمح رغم كثرة نخيلاته وحقوله صار بلدا يستجدي

الأغذية الّتي يحتاجها بما فيها التّمر والقمح حتّي أصبح بأمسّ الحاجة إلي قوت يومه وليس هذا إلّا مكسباً من مكاسب الغزو الأميركي للبلد استغلّه الشاعر كمادّة خصبة لفكاهة مريرة أبدعها في هذا السّياق:

«نحنُ مهزومون من قبل ابتداء الحرب / نخلٌ يشحذُ٤ التّمر / حقولٌ تشحذُ القمح» (المصدر نفسه، ٢٠٠٦: ١١٢).

لقد سدّد الشاعر رأس حربة سخريته الموجعة نحو المحتلّين في لقطات من شعره وها هو يخاطب الغزاة بلغة هازئة يستخف بقدراتهم مشبّهاً إياهم بأصحاب الفيل الّذين تهشّموا تحت وابل من أحجار رُموا بها من قبل طيور أبابيل.

الرسالة الّتي يوصلها الشاعر بأسلوب هزلي إلي أصحاب الاحتلال هو أنّهم سوف يقهرون ويهزمون في العراق وليس العراق لقمة سائغة يلتهمونها أو بقرة حلوبة يحلبونها:

خذوا بنصحي / عيونكم لا تقوي / علي عواصف صحارِنا / أفيالكم الفولاذية / لن تتحّمل سجّيل أبابيلنا / دارُنا أصغر من أن تُقسّم وأكبر من أن تُبتلع (السّماوي، ٢٠٠٩: ٩٩).

والصورة الّتي وظّفها الشاعر في فكاهته الآنفة الذكر مستقاة من الصورة الموحية الّتي رسمها القرآن الكريم في سورة الفيل المباركة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل/ ٥-١)

ممّا يخشاه الشاعر أن يطمس المحتلّون العادات والتقاليد الّتي أصبحت مَعلماً من معالم الإنسان العراقي وأن يمحو ثقافته العربية التليدة ويشوّهوا رموزه الإسلامية. استخدم شاعرنا في اللقطة التالية من شعره تعبيراً ساخراً يبعث علي القلق والخوف. إنّه حذّر مواطنيه من محاولة أمريكية مخطّطة لتفريغ القرآن الكريم من محتواه وتهميشه وتغييبه عن الساحة وذلك للتهديد الذي يشكله القرآن الكريم علي الحضارات المادية الهشّة الّتي تَعتبر الإنسان حيواناً متحضراً لا يهمّه سوي الأكل والشرب وممارسة الجنس.

مأساة الغزو لا تختصّ الأحياء فحسب بل تطال الأموات أيضاً. فلا تشعر الأموات في العراق حتّي في مثواها الأخير وهي تُقصَفُ بالمدافع وتُداسُ بالدّبابات. فقد اقتنص

الشاعر هذه الفكرة بمصيدة حسّه المرهف وخياله الطاغي ليصنع منها فكاهة سوداء يعبّر بها عن مشاعر غضبه واستنكاره لظاهرة الغزو بأقصي درجة.

ترك السّماوي ضمن وصيته الأخيرة ألّا يدفن جثمانه بعد الموت في مقبرة وادي السلام إذ أنّه يخشي أن تتحطّم عظامه الرقيقة عند مرور الدّبابات عليها.

والرسالة الّتي حاول الشاعر إيصالها إلي المخاطب هو أنّ العراق أصبح جرّاء الغزو بلداً لم يسلم فيه الأموات من القذائف والطلقات النارية، فضلاً عن الأحياء الّذين يعيشون داخل المدن الّتي تقصفها قوات الاحتلال بطائراتها الحربية ودباباتها الزاحفة ليل نهار:

وصية الأخيرة / لا تدفنوني في وادي السلام / عظامي هشّة / لا تتحمّل مرور الدّبابات / وروحي لا تطيق استنشاق الذخيرة الحية في الوطن الميت/ (السّماوي، ٢٠٠٩: ٤٢).

لا يتردّد جنود الاحتلال في قتل كلّ عراقي يتوجّسون منه خيفة ولا في اقتحام كلّ بيت مشبوه بحثاً عن مواطن مريب. ممّا لفت انتباه الشاعر وألهمه الفكرة الرئيسيه لفكاهة مريرة هو أنّ العراقيين يتجنبون إقفال بيوتهم أثناء تنقّل جنود الغزو داخل المدن. قد يخطر علي البال أنّ السّبب في ذلك هو عدم شعور العراقيين بخطر اللّصوص كما يتبادر إلي الذهن أنّ السّبب هو عدم امتلاكهم للأموال الّتي تستحقّ المواظبة عليها بإغلاق البيوت ولكنّ السّبب ليس هذا ولا ذاك، بل في الواقع أنّ الأمر الّذي جعل المواطن العراقي يفتح باب منزله ليل نهار، هو أنّه يري أنّ الإقفال لا يمنع جنود الاحتلال من اقتحام البيوت فإنّهم كلّما أرادوا ذلك لا يكلّفهم الأمر أكثر من أن يسدّدوا ركلة نحو الباب فإذا بالباب يفتح علي مصراعيه:

«سواءٌ أ كانت داخل البيت أم خارجه / تترك الباب مفتوحاً / رغم أنّ الذّئاب / لم تتخلّ عن أنيابها / ليس لأنّ أثاثَ البيتِ / لا يساوي سعرَ القُفل...» (السّماوي، ٢٠٠٩: ٣١).

الدور الريادي الّذي يؤدّيه الاقتصاد الأميركي المتمثّل بالدولار جعل شاعرنا يفتح منافذ خياله أمامنا ليرينا من خلالها الصورة الّتي رسمها الشاعر للدولار الأميركي بريشته الشعرية فقد أضحت هذه الورقة السحرية تخدم مصالح الساسة الكبار وأصحاب

المتاجر والشركات العملاقة كعفريت يحقّق لهم مطامعهم ومطالبهم دونما رادع أو وازع. فالدولار الأميركي أصبح في عالمنا رمزاً للقوّة فإنّه سيد القرار دون غيره من العملات. كلّما شارك الأمريكان في حوار مع خصومهم أصبح الانتصار حليفهم والفضل يعود في ذلك إلي هذه الورقة الخضراء. أصحاب الدولارات يحوّلون بهذه العصا السحرية، الجنّة إلي النار والنار إلي الجنّة والنتيجة أنّ العالم أصبح بفعل الدولار كتلتين: كتلة الأغنياء الّذين يعيشون حياة الأحلام ويتقلّبون في أحضان النّعيم وكتلة الفقراء والمعوزين الّذين يتخبّطون في حياة البؤس والشقاء فكأنّهم يعيشون في النار خالدين فيها أبداً.

«جلالة الدولار / منقذنا / والمرشد الفقيه... يفتي فيطاع / لا كما كانت فتاوي السّيد (الدينار) لحيتُه الخضراءُ صهوةُ المضاربين / في مصارف الحوار / فتستحيل جنّةُ اللّه إلي جهنّم / وتستحيلُ النّارُ / حديقةً قدسيةَ الأزهار» (السّماوي،٢٠٠٦: ٦٣).

٢. الأنظمة العربية الاستبدادية

النظام الجائر الّذي يحكم علي رقاب النّاس يحاول قدر المستطاع القضاء علي كل من يشعر بأنّه يهدّد كيانه فليس غريباً أن يتعامل النظام الغاشم مع من يشهر السيف في وجهه إلي أقصي درجة من العنف والقسوة ولكنّ الغريب المضحك أنّه لا يتحمل مواطناً عادياً جلس في زاوية من المسجد ويتلو من الآيات القرآنية ما يحرّض علي النّضال ضدّ الطغاة والظالمين. فإذا حدث ذلك يهجم عليه جنود الظّلم ويقتلونه بالرصاص والرماح متّهمين إياه بالتخطيط لضرب مصالح البلاد. لا ذنبَ له سوي أنّه كان شجاعاً ومغامراً حيث تجرّأ علي قراءة آيات القتال. حيث يعتبر القيام بهذا العمل في بلاد تحكمها الأنظمة الديكتاتورية ذنباً لا يقتفر. ولقد عبّر الشاعر عن أيادي الظّلم بالذّئاب تعبيراً عن وحشيتهم وضراوتهم في معاملة الشعب الأعزل كما وصفهم بالأغراب ليرمز إلي أنّهم عملاء للأجانب وليسوا من الشّعب ماداموا يخدمون مصالح الأعداء:

«.....لكنّما (الأغرابُ) باغتوهُ في المحرابِ / يقرأُ في الكتابِ / فَضَّلَ اللّهُ المُجاهدينَ / قبلَ أنْ يكملَ / كرَّ البَشرُ الذّئابُ / عليه بالرَّصاصِ والمِحرابِ / بِتُهمَةِ الإرهابِ» (المصدر نفسه، ٢٠٠٦: ١٣٢)

الصورة الّتي رسمها الشاعر عن الاستبداد الحاكم في العراق بين مدي خطورة الأوضاع وبشاعتها في بلد الرّافدين بأسلوب ساخر. فالنّظام الّذي يعتقل المواطن لمجرد

قراءته آية تحثّ علي الجهاد والمقاومة ماذا عساه أن يفعل بالمواطنين الّذين يحملون السّلاح لمناهضة الاستبداد!؟

تحدّث شاعرنا وبلغة ساخرة عن الظاهرة الّتي رصدها في وطنه إلّا أنّ هذه الظاهرة ليست حكرا علي العراق بل توجد في أغلب البلدان الّتي تخضع لحكم الأنظمة العلمانية الداعية إلي مبدأ فصل الدّين عن السياسة. فإنّ الموّاد والبرامج الّتي تبثّها وسائل الإعلام في هذه البلدان تتنافي مع الطقوس الدّينية والمثل العليا.

ما أدهش شاعرنا وأصابه بصدمة نفسية هائلة، أنّه في حال يؤكد الإسلام علي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تروّج وسائل الإعلام العربية لما يخالف ذلك جملة وتفصيلا. فإنّها تحرّض المواطن العراقي علي القيام بالمنكر ونبذ المعروف جانباً. فيظلّ الشاعر مندهشاً حائراً وسط المفارقة الّتي أحسّها بين ما تذيعه وسائل الإعلام من المجون والخلاعة وما يحترمه المجتمع العراقي من الطقوس الدّينية النابضة بالطهارة والعفة.

فلا يكاد يسمع الشّاعر صوت الأذان الّذي يرفع عن مآذن البلد والّذي يملأ الأرجاء بريح الجنة حتّي يسمع من الإذاعة ما يحرّض علي مسايرة الأمم الأوروبية ومحاكاتهم في شرب الكحول وسائر مظاهر الأباحية ما حوّل البلد في رؤيا الشّاعر إلي ملهي واسع وحانة كبيرة يرتادها المحسوبون علي الحكومة من رجال السياسة والتجّار وأصحاب المناصب الرفيعة.

فراح يشكو هذه الفوضي الرهيبة والمفارقة البغيضة بقوله:

«بادرني بقوله: من أي شيءٍ تشتكي؟ / قلتُ من الضّبابِ في بصيرتي / ومن شعور غامض / أفقدَني الوقار والسكينة / فتارةً أشعُرُ أنّ بلدتي مأذنة / ترشّنا بالنّور والأريج / حتّي تستحيل جنة أرضية / وتارةً إخالُها إذاعةً / تنهَي عن المعروف / أو تأمرُ بالمنكر / حتّي تستحيل حانةً مخدعاً لساسة / فلم أعدْ أميز العُهر من القداسة ...» (السّماوي، ٢٠٠٦: ٢٠)

و الآية الّتي أرسي عليها السّماوي دعائم فكاهته المريرة هي: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ... ﴾ (التوبة / ٧١)

كما لاحظنا في المقطع الشعري السابق تقوم الإذاعة العراقية بما يعارض الآية فبينما توصي الآية الكريمة إلي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، تأمر الإذاعة بالمنكر وتنهي عن المعروف وهكذا يقتنص الشاعر فكاهته المريرة في الوسط العراقي الّذي تكتظّ بالمفارقات والتناقضات.

باعتقاده لا يليق بالحكام العراقيين أن يخضع لهم الشعب العراقي ويمتثلوا أوامرهم ماداموا أذلاّء صاغرين أمام أسيادهم الأمريكان حيث أصبح العراق برمّته سجناً رهيباً يقبع فيه الشعب والحكام علي السوية.

الصورة الفكاهية الّتي رسمها الشاعر تزداد سخريةً عندما ينتقل بالقارئ إلي صورة لحديقة الحيوانات حيث لا أفضلية هناك للطاؤوس علي الدّجاج حالما يعيشان في قفص واحد وهكذا حالُ الحكام والشعب العراقي في ظلّ الاحتلال الأميركي:

«لا طاعة لحاكمٍ محكوم / لماذا يمشي الطاؤوس متبختراً ؟ / ألا يعرف أنّه ودجاج حديقة الحيوانات / يسكنون قفصاً واحداً ؟!» (السّماوي، ٢٠٠٩: ١٢٦).

البلدان الّتي تسيطر علي شؤونها الأنظمة الديكتاتورية تفتقر إلي العدالة والمساواة، وتغيب فيها آليات إحقاق الحقوق فلا جدوي للقوانين والدساتير الراقية في حال غياب الصيغ الّتي تضمن تنفيذها وتمريرها.

يعطينا السّماوي صورة مضحكة عن المجتمع الّذي يتمتّع بقوانين راقية متقدّمة ولكن طالما لا توجد فيه إرادة جادّة من قبل الحكام لتطبيقها فهي تبقي حبراً علي الورق. في الصورة الّتي صوّرها الشاعر عن مجتمعه؛ ليس المتّهم قادرا علي الدفاع عن نفسه إذ لا أمل لديه بإقامة العدالة بحقّه في ظلّ محكمة يحكم فيها قاضٍ لا يسمع ويحضرها شاهد لا يري فما هي فائدة القانون إذاً مهما كان فصيحاً؟!

«إذا كان المتّهم أخرس / والقاضي أصمّ والشاهد أعمي / فما الفائدة إذن / من فصاحة القانونِ؟!» (المصدر نفسه، ٢٠٠٩: ٧٣)

من الواضح أنّ شاعرنا لم يقصد بالأعمي والأصم معناهما الحقيقي بل يعني أنّهما لا يرون الحقّ ولا يقرّون به فمن أجل ذلك باعا ضميرهما قبالة المادّة وحطام الدّنيا.

فالصورة الّتي أعطاها تعكس توغّل الفساد في جذور المجتمع كما أنّ الآية الّتي استفاد منها في رسم صورته الساخرة هي آية نزلت بحق الكفّار الّذين لا يسمعون الحقّ ولا يرونه ولا يعتبرون به: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾(البقرة /١٨).

إنّه ازدري حكام بلده في مقطع آخر من شعره هاجياً إياهم بمرض الشِّقاق أو البواسير من كثرة جلوسهم علي مقاعد الرئاسة وعدم تركهم إياها حتّي انتقلت العدوي منهم إلي البلد.

في الواقع أراد الشاعر أن يندّد بأسلوب ساخر بالحالة السيئة الّتي شاعت وانتشرت بين الحكام والمسؤولين في بلده وهي عبارة عن عدم تنحيهم عن مناصبهم ووظائفهم حتّي في حال عدم كفاءتهم وجدارتهم لها. فكأنّ مقاعد الرئاسة ملتصقة بمؤخّراتهم بحيث لا تنفصل عنها أبداً !

«أمّا الأباطرة٥ فسيماهم في مؤخّراتهم من أثر التشبّث بالكراسي / متسبّبين في إصابة الوطن بالبواسير٦» (المصدر نفسه، ٢٠٠٩: ١٢٨).

كلمة «سِيما» الواردة في شعره تذكرنا بالآية الكريمة الّتي وردت فيها الكلمة نفسها وهي: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ..... سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾ (الفتح /٢٩).

لقد شجبَ السّماوي بلهجة غاضبة الأنظمة العربيّة الرجعية الّتي وقفت إلي جانب الغزاة الأجانب وساندتهم بدولاراتها النفطية وإعلامها المزيف. بلغ الاستياء والامتعاض لدي الشاعر إلي درجة يتّهم تلك الأنظمة بالتواطئ والمساومة مع جنود الاحتلال وعقد الاتفاقات السِّرية معهم.

وما طفح له قلب الشاعر حرناً وكأبةً أنّ حكام العراق ساهموا أسيادهم الأجانب في نهب البلد وسلبه فكأنّه كعكة اقتسموها فيما بينهم أو سوقٌ للإماء والرقيق تدرّ عليهم من خلالها أرباحاً طائلة:

«معتصمون بحبل الأجنبي / متعاونون علي المنّ والسّلوي٧ / عاقدون العزم / علي عقد الصفقات السّرية / أ هذا وطن؟ أم سوق نخاسة؟» (المصدر نفسه، ٢٠٠٩: ١٢٩).

ممّا يؤلم السّماوي أنّ الأنظمة العربية بدل أن تسعي جاهدة لإنقاذ العراق من براثن الاحتلال أصبحت تعمل كأجندة وشبيحة لقوات الاحتلال وهكذا باتت جزءاً من

مشكلة العراق العويصة وليس جزءاً من حلّها. هذه الظاهرة ألهمت شاعرنا فكرةً بني عليها فكاهة مريرة تحدو بالقارئين إلي التفكير في المصائب الّتي مُني بها الأوساط العربية والّتي نجمت عن غياب روح المسؤولية والتّضامن لدي الشعوب العربية وحكامها. يذكر أنّه استخدم لفظتي «المنّ والسّلوي» من القرآن الكريم وهما يرمزان إلي ما أسبغ اللّه علي العراق من نِعمٍ وخيرات. والآية الكريمة الّتي ورد فيها الكلمتان هي: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ﴾ (الاعراف /١٦٠)

العراق الحقيقي الّذي يحلم به الشاعر مازال يعيش غائباً عن الأنظار لا يعرف الشاعر متي سينتهي الانتظار ويحين وقت الفرج. فقد عاش العراق مدّة ٣٥ عاماً داخل سجن الطاغية صدام وهذه المدّة هي الفترة الّتي امتدّ فيها الحكم الصدامي الّذي عبّر عنه الشاعر بالغيبة الصغري٨ نفسها فما انتهت دورة الغيبة الصغري للعراق بانتهاء حاكمه المستبد حتّي بدأت فترة الغيبة الكبري باحتلال العراق. وما يعصر قلب شاعرنا هو أنّه لا يدري إلي متي ستطول الفترة الجديدة وتداعياتها الرهيبة وهكذا يحترق شوقاً وحنيناً إلي المستقبل الّذي يري فيه العراق قد بدأ حياة جديدة لا يرزح تحت نير الاستبداد والاحتلال بل يعيش بأبناءه عيشةً رغيدة كريمة:

«فَرَحُنا عجّل اللّهُ فَرَجَه / متي يخرجُ من بئر الحزن؟ / خمسٌ وثلاثونَ دورةَ شمسٍ / ستدوم غيبته الكبري / في بئر الاحتلال؟ / العراق المنتظر / متي يقومُ / مِن تحت رماد الانتظار!؟» (السّماوي، ٢٠٠٩: ٨١)

الفكاهة في المقطع السابق تكمن في أنّ أصحاب الاحتلال اقتحموا العراق بحجّة أنّهم يريدون تحرير البلد من سجن الاستبداد الصدامي وإقامة الديمقراطية فيه ليصبح الدولة الوحيدة الّتي تتمتّع بالحرية علي غرار الأنظمة الأوروبية فتكون حينها نسخة رائعة للبلاد تحتذي. ولكن ساءت الأمور علي خلفية الاحتلال بحيث كان العراقيون يفتقدون أيام الاستبداد فليس غريباً أن يسمّي الشاعر دورة الاحتلال بالغيبة الكبري للحرية رغم حداثتها مقارنة بفترة الاستبداد الّتي كنّي عنها بالغيبة الصغري مع أنّها دامت أكثر من ثلاثين عاماً. ولا يخفي علي القارئ الفكاهة الّتي تنطوي عليها عبارة «فَرَحُنا عجّل اللّه فرجه» فقد تعوّد القارئ علي استخدام العبارة الآنفة الذكر فيما

يتعلق بالإمام الغائب الذي ينتظر ظهوره بقلب مفعم بالاشتياق والحنين إلّا أنّ الشاعر وظّف العبارة نفسها فيما يخصّ بالفرح حيث دعا له بالانفراج وكأنّه يريد أن يلمح إلي أنّ الفرح اخطف عن صدور العراقيين منذ أمد بعيد ولذا يجب عليهم أن يدعي له بالتعجيل لفرجه وعودته إلي قلوبهم الّتي حلّت بها الأحزان والهموم.

٣ . أعمال الإرهاب والعنف

صوّر السّماوي في المحطة التالية من شعره مشهداً ساخراً يعيد إلي ذاكرة القارئ الأيام الّتي قضاها في ظلّ الغزو الأميركي حيث أصبح العراق معركة القتال من أقصاه إلي أقصاه.

فباتت الأسلاك الشائكة تحاصر البلد كالسياج وتزرع في حقوله الألغام بدل المحاصيل فكان المواطن الأعزل لا يجد أمامه ملاذاً يؤويه إذ كانت الطائرات تقصفه بالقنابل والصواريخ جوّاً وجنود الاحتلال تنتهك حرماته أرضاً. إذاً كيف يمكن للإنسان المدني أن يحافظ علي حياته في البلد الذي تعجّ جنباته بالمصائب و الشرور.

فنراه يقول ردّاً علي هذا السؤال بأسلوب فكاهي مرير لايمكن للانسان العراقي أن ينجو بحياته في هذا الوسط الرهيب إلّا إذا تحوّل إلي قردة تقفز علي الأسلاك الشائكة ويجتاز ميادين الألغام:

«أنا لستُ نسناساً[٩] يا صديقي / لكنّني / عشتُ دزينةً[١٠] من السنوات / وأنا أقفز كالنسناس بين حقول الألغام / وكالنسناس تسلّقتُ الأسلاك الشائكة» (المصدر نفسه، ٢٠٠٩: ١١١)

جرّ الاحتلال إلي العراق الرُّعب والأهوال، فأصبح الشعب العراقي المحتلّ يعاني المخاوف الناجمة عن عمليات العنف والإرهاب. ندّد الشاعر بالجماعات الإرهابية الّتي تحصد الأبرياء في ظلّ الظروف الفوضوية المترهلة الناتجة عن الغزو والاحتلال. لقد كثرت في العراق بعد الغزو الأميركي إليه عصابات مهرّجة و مجرمة يفجّر افرادها أنفسهم إثر عمليات انتحارية وسط الجموع الحاشدة من المدنيين الأبرياء طمعاً في دخول الجنّة. ولذلك أدان العصابات الهمجية والوحشية الّتي دفعت بها الحماقة والغباء إلي تَصوّرِ الجنّة منجماً لا تُفتحُ أبوابها إلّا بالتفجير أو مسلخاً لا يدخلُ فيه إلّا بقطع الأعناق.

والفكاهة تبلغ قمّتها عندما يسخر بالانتحاريين بلغة هازئة قائلاً لهم لو كان القتل الأعمي والعشوائي ضرباً من الجهاد في سبيل اللّه ولوناً من التّقي، فكان شارون أتقي النّاس جميعا إذ أنّه في طليعة القتلة الّذين ارتكبوا المجازر وتلطّخت أيديهم بدماء الأبرياء حتّي سمّي بالجزّار:

«أيها الهمجيون / الجنّة ليست منجم فحم حجري / لتفتحَ أبوابها بالدّيناميت / ليست مسلخاً لتدخلَ بجزّ الرؤوس / إذا كان الإرهاب جهاداً / والقتل الأعمي تُقي / فإنّ آرييل شارون / أتقاكم جميعاً/» (السّماوي، ۲۰۰۹: ۱۱۹).

كما يبدو إنه اقتبس في المقطتف الشعري السابق لقطة من النص القرآني العظيم جرياً علي عادته حيث أخذ «أتقاكم جميعا» من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات / ۱۳).

وممّا يدّل علي ذوق الشاعر الفكاهي أنّه استخدم صفة «أتقاكم جميعاً» لمن هو أبعد ما يكون عن هذه الصفة وهو «شارون» المعروف بجزّار فلسطين.

في ظلّ حالة الفوضي والانفلات الأمني الّتي خلّفها غزو الأمريكان علي العراق قامت المجموعات الإرهابية والفصائل المتكالبة علي السلطة بتنفيذ عمليات القتل والتفجير في المناطق الآهلة بالسكان والأضرحة المقدسة للأئمة الأطهار (عليهم السلام) ووسط الشوارع والحارات المزدحمة بالمارّة. شهد العراق الجريح من الأعمال الإجرامية في الأيام الّتي تلت الغزو ما لم يسبق له من مثيل. لقد جرت حمامات الدّم علي أثر أعمال العنف العشوائية راح ضحيتها آلاف من الأبرياء العُزل والّذين لم يرتكبوا ذنباً سوي أنّهم عاشوا في العراق الّذي ديست حرماته ورموزه تحت أقدام المعتدين.

شجب السّماوي الأعمال الإجرامية الّتي نفذّت علي أيدي المجموعات العديمة الفكر والضمير. وصف شاعرنا القائمين بالإرهاب العشوائي بالمارقين الجُدد الّذين لا يتردّدون في زرع العبوات الناسفة والقنابل الموقوتة داخل السيارات المفخخة وتفجيرها وسط الأمكنة المزدحمة بالنّاس، حيث يقتلون بها حشوداً هائلة من المدنيين معظمهم الأطفال والنّساء، عزا الشاعر الارهابيين إلي جماعة الخوارج الّتي افتقدت القدرة علي التفكير

وفهم القضايا بطريقة عقلانية متوازنة والّتي حملتها روح العنف والنزق إلي ارتكاب جرائم سوّدت بها صفحات التأريخ والّتي تُعدُّ وصمة عار في جبين الاحتلال.

مدّ شاعرنا يده إلي اللّه ثمّ داعياً إياه متضرّعاً أن ينعم علي شوارع العراق بالأمن والهدوء كي تعود إليها فرحة الأطفال البريئة صباحاً وغناء الطيور المُريح مساءً:

«وشوارعنا عجّل اللّه فرجها / متي تخرج من جُبِّ المارقين١١ / الآمرين بالقنبلة / الناهين عن التّين والبرتقال فتعود الساحات مصطبحاً للأطفال / ومغتبقاً للحمائم / ...» (السّماوي، ٢٠٠٩: ٨٠).

الفكاهة المريرة الّتي نستشفّها من خلال كلماته هي أنّ جماعة الخوارج الّتي كانت تستبيح أرواح الناس وأعراضهم زمن حكم الإمام علي (عليه السلام) علي العراق باتت اليوم ترتكب الجرائم نفسها باسم الدّين ولكن طلباً للوصول إلي السلطة. فقد صدق من قال: «التأريخ يعيدُ نفسَه» زد علي ذلك أنّ في عبارة «وشوارعنا عجّل اللّه فرجها» سخرية لاذعة مفادها ومغزاها أنّ شوارع العراق أصبحت مسرحاً للأعمال الإرهابية الّتي تمارسها العصابات المتطرّفة وفلول النظام السابق. تشهد شوارع العراق يومياً حوادث القتل والإرهاب في ظلّ غياب الأمن وانعدام السلطة المركزية الّتي لا تتمكن من السيطرة علي شؤون البلد وإنهاء حالة التوتر والأزمة الّتي جعلت العراق ينزلق نحو شفير الهاوية. وبما أنّ الشاعر لا يري في الأفق بوادر انفراج الأزمة استخدم الدّعاء الذي يتلائم مع هذا المقام ألا وهو دعاء الفرج حيث إنّه من عادة الشيعة استخدام هذا الدعاء كلّما يمرّون بظروف قاسية ويعانون من مصائب الحياة. فكلّما ضاق صدرهم وطفح كيلهم يذكرون إمامهم الغائب ويتمنّون له الظهور العاجل كي يأتي وينهي معاناتهم. بناءً علي ذلك استعمل شاعرنا دعاء الفرج للعراق علي غرار دعائه للإمام المنتظَر ليشعر القارئَ أنّه قد استنفد صبره فلا يعود يتحمّل هذه الأوضاع الفوضوية والفاشية الّتي خلّفها العناصر الإرهابية الداعية إلي القنبلة والتفجير والنابذة للتين والبرتقال اللذَين يرمزان إلي السّلام والهدوء. والآية الّتي نهل السّماوي من منهلها العذب هي: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة/ ١١٢)

٤. الشعوب العربية المنكوبة

الفكاهة المريرة الّتي نطالعها في النموذج الشعري التالي أنّ الشعوب العربية تنتظر وبفارغ الصبر مجيء قائد شجاع عادل يصون كرامتها و يذود عن ذمارها وحماها مع أنّها أحالت زمام أمرها إلي الأجانب الّذين لم يتورعوا عن انتهاك حرمات الرعية وسلب كرامتها ومسخ هويتها وفق ما شاءت ميولهم وأهويتهم بحيث صاروا هم الّذين يقرّرون مصير الشعوب ويسمعون لهم القرار:

«كيف يقوم بيننا (معتصم١٢) يذود عن كرامة الحُرّة١٣ / حين يستبيح خدرها المنبوذ١٤ والآفك١٥ والهجينُ١٦ / إن كانت الأمة قد أوكلت العصمةَ للغريب / فهو الآمر الناهي ....ولي أمرها / وصاحبُ القرار وقت الفصل بين الظّن واليقين!؟» (السّماوي، ٢٠٠٦: ١١٤)

لقد اعتبر الشاعر حالة انتظار الأمة العربية إلي قائد بطل يأتي وينهي مأساة العرب بعصاه السحرية ويده البيضاء ضرباً من الحماقة والبلاهة ذلك لأنّ القائد الشجاع كائناً ما كان لن يتمكن من القيام بشيء ولن يحرّك ساكناً مادامت الشعوب العربية تفتقد إلي روح التضامن والتماسك وتركن إلي الأجانب الّذين يستبيحون كرامة الشعب ويسترخصون حرماته بكلّ وقاحة

لقد انتقل في المحطة التالية من شعره إلي ما تعوّدَت عليه الشعوب العربية من الاقتناع برفع الشعارات المطنطنة وإلقاء كلمات نارية بدل القيام بالعمل الجادّ والمخلص. يعرف السّماوي حقّ المعرفة ما للكلمة والشعر من تأثير في أذكاء الحماس وإثارة الحمية إلّا أنّه يجزم كلّ الجزم بأنّ مجرد الكلام من دون أن يصحب مع جهاد مرير ومستميت علي أرض الواقع لن يجدي نفعاً ولن يحقّق الفوز علي الأعداء والقضاء علي الاحتلال والأسر. ولكي ينبّه الشعوب العربية علي حماقة الاعتماد علي الكلمات المعسولة والرّهان علي الأشعار الساخنة يشجّعها وبأسلوب تهكمي أن تزوّد نفسها بجيوش من الخطابات الملهِبة وخيول من الأشعار المثيرة، ومن ثمّ تكون مطمئنة القلب هادئة البال من أنّ الانتصار سوف يحالفها دون ريب أو شك! في الحقيقة أراد الشاعر أنّ الخطب البليغة والأشعار الرائعة لن تحرّر الشعوب العربية من ربقة الاستعمار ولن تستجلب لها الحرية والعيش بكرامة وإباء إلّا إذا تحوّلت إلي سيف مشهور وسلاح ماض يقضي علي

الأعداء ويطيح بهم. هذا وقد استلهم الشاعر من الآيات الّتي تحفّز المسلمين علي التزوّد بأمضي سلاح وأعتاه داعياً أبناء العرب إلي استخدام الكلمة والخطابة في الصراع مع الأعداء علي سبيل التهكم والسخرية الّتي أشرنا إليها توّاً:

«أعِدّوا لعدوّكم عدوّ اللّه ما يرهبُه من قوّة اللسان / وما استطعتم من خيول العصماء / والبيان / ذَوداً عن التّراب والمالِ وعن عرضِ المحصنات بالأشعار / حتّي يفرّ القاتلُ المحتلّ من بستاننا / وتُستعادُ الدّارُ!» (السّماوي، ٢٠٠٦: ١٠٣).

والآيات الّتي استعان بها الشاعر واستفاد من منهجها التعبيري هي آيات يدور فحواها ومغزاها حول الجهاد ضدّ الأعداء والاستعداد لعراكهم وهي: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .... ﴾ (الانفال / ٦١-٦٠)

٥ . عملاء الاحتلال وجنوده في العراق

تطرّق شاعرنا في اللقطة الشّعرية التّالية إلي فئة مساومة تقف إلي جانب الغزاة وتحميهم قولاً وفعلاً وتمدحهم بأجمل صفات وأروع نعوت ثمّ يخص بالذكر من هذه الفئة المهادنة بعض أئمة الصّلاة وأصحاب اللّحي والساسة وكبار التجّار والمراوغين من الزهاد، ممن استهوتهم المناصب الرفيعة وبهر أعينهم بريق دولارات الأجانب. الازدواجية الّتي يعانيها هذه النّخبة المساومة أصبحت مبعثاً للفكاهة الّتي صاغها الشاعر. هذه الطغمة الشوهاء تتشدّق بحبها وولاءها وانتماءها للرموز الدينية ولكنّها في الوقت نفسه تظلّ معادية لها فهي كما ألمح شاعرنا تبكي في الليل حزناً علي الإمام علي (عليه السلام) في حال أنّها تُناصر أعداءه وقتلتَه وقت النهار!

فاستفحل خطرها وتفاقم شرّها إلي درجة أخذ السّماوي يستعيذ باللّه من شرورها وأذاها:

«أعوذ باللّه من الصلاة خلفَ لِحية / تمجّد الغُزاةْ / أعوذ باللّه من السّاسة ينسجون للعراةْ / ثوب الشعارات الّتي تبايع الطغاةْ / أعوذ باللّه من الأئمة التّجارْ / الشاكرين نعمةَ الدّولارْ / في اللّيل يبكون (علياً) / ويبايعونَ قاتليهِ في النّهار» (المصدر نفسه، ٢٠٠٦: ١٥١).

ممّا نستنبطه من خلال المقطوعة أنّ «اللّحية» هي تعبير ساخر عن كبار الشخصيات الّتي جعلها ضيق الرّؤية وقصر الفكر ترغب في مداجاة الغزاة والتملق لهم.

نأخذ فيما يلي نموذجاً شعرياً آخر يتحدّث الشاعر فيه مع الموالين للاحتلال الأميركي بلغة الخطاب يصفهم فيها بالسّاسة المراوغين الّذين ناصروا الاحتلال بحجّة تحرير شعبه ولكن سرعان ما حوّلوا البلاد أنقاضاً أقاموا عليها حفلة الانتصار واتخذوها سوقاً يبيعون فيها ثقافاتهم الّتي يستعبدون بها الرّقاب.

و الفكاهة المتبلورة في هذه المحطة الشعرية تنبع عن تناقض ساخر نلمسه بين ما يدّعيه المحتلّون للعراق وما يفعلونه وممّا يدعو للسخرية أنّ جنود الاستكبار دخلوا العراق ليمنحوا شعبه المضطهد متاع الحرية حسب زعمهم إلّا أنّه صار واضحاً أنّ السلعة الّتي أتحفوها للعراقيين هي الاستعباد والرّق ليس غيرُ!

«يا كلَّ من جاءوا إلي وليمة العراق / مِن ساسة ومِن مرائين١٧ / وباحثين عن أسواق / للسّلع الّتي بها تُستعبد الأعناق /» (المصدر نفسه، ٢٠٠٦: ١١٠)

إنه يكشف النقاب عن وجه المناصرين للغزو في اللقطة التالية حيث لم تكن نيتهمم الخدمة لمصالح الشعب بل كانوا يجرون وراء المادّة والمنصب فتحوّلت قبلتهم من الحجر الأسود إلي البيت الأبيض وراحوا يتشبّثون بالسلطة والكراسي بدل تلاوة آية الكرسي حسبما قاله الشاعر!

فانقلبت الأمور واختلط الحابل بالنابل في الوسط الّذي يدّعي فيه الخونة أنّهم حماة الناس وأصدقاءهم. ولكن بات من الواضح أنّهم جنود الاحتلال وأياديه ولكنّهم ارتدوا النقاب مخفين وجوههم لسرقة الأموال فظلَّ الناس في حيرة من أمرهم لايمكنهم التمييز بين اللص والفّزاعة كأنّهم سُمِلت أعينهم فلا يرون الإرهابيين الّذين يرتعون ويلعبون علي أشلاء الضحايا ورفات المنكوبين!

«قد استبدلوا صورة الكرسي / بـ «آية الكرسي» / و«الحجر الأبيض» بـ «الحجر الأسود» كيف أميز / بين اللّص والناطور / إذا كنت مفقوع١٨ العينين / في وطن / أضحي مرعي للملثّمين؟» (السّماوي، ٢٠٠٩: ٤٧)

المفارقة الّتي أجراها الشاعر بين «صورة الكرسي» و«آية الكرسي» والحجر الأسود والحجر الأبيض و«اللّص» و«الناطور» أعطت شعره صورة فكاهية يستشعر المخاطب من خلالها حالة التدهور والفوضي الّتي تسود البيئة العراقية المنكوبة.

لا يخفي أنّ الشاعر أخذ لفظة «الكرسي» الّتي ترمز إلي المناصب العالية من الآية الّتي سمّيت بآية الكرسي لاحتواءها علي لفظة الكرسي ومنها: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (البقرة / ٢٥٥)

نتائج البحث:

١- الفكاهة المريرة لون من الفكاهة الّتي تحمل دلالات لاذعة بالرغم من أنّها تزرع ابتسامة علي شفاه السامعين.

٢- لقد استُخدمت هذه التقنية في القضايا السياسية والاجتماعية في معظم الأحوال ممّا يقتضي لغة ذات شحنة دلالية واسعة ورصيد تعبيري خصب.

٣- بات الغزو الأميركي للعراق مصدر إلهام للشعراء العراقيين الّذين استخدموا الفكاهة المريرة لتصوير معاناة الغزو وتداعياته.

٤- يعدّ السّماوي من أبرز الشعراء الّذين استغّلوا الإمكانيات العبقرية الواسعة الّتي تحتويها الفكاهة المريرة للتنديد بالاحتلال وما جرّه إلي الشعب العراقي من مأساة.

٥- تأتي الفكاهة السوداء لدي الشاعر مزيجاً من السخرية والرمز في أغلب الأحيان.

٦- إنه نهل من منهل القرآن الكريم العذب واستقي من معينه الّذي لا ينضب حتّي الارتواء ممّا انعكس علي فكاهته بشكل واضح ملموس.

٧- أشعاره طافحة بالدلالات الرمزية الّتي تنصَبّ في خانة الصمود والمقاومة.

٨- شغل حادث الاحتلال الأميركي للعراق ومعطياته الكارثية حيزاً واسعاً من أشعاره ويعدّ ركيزة من ركائز شعره المقاوم.

هوامش البحث

١. ولد عام ١٩٤٩ م في مدينة السّماوة إحدى المدن العراقية درس اللغة العربية وآدابها في جامعة المستنصرية ببغداد و عمل صحافياً بعد تخرّجه عن الجامعة (البدوي، ٢٠١٠: ١١) شارك في

الاحتجاجات الّتي نفّذها الشعب العراقي ضدّ النظام الصدامي الغاشم عام ١٩٩١ م هرب شاعرنا إلى المملكة العربية السعودية بعد أن أخفقت الحركة الاحتجاجية للشعب وأقام فيها ستّ سنوات يعمل خلالها في الإذاعة الّتي تناويء الحكم الصدامي الجائر باسم الشعب العراقي المناضل يقدّم فيها برامج سياسية وثقافية تأتي في سياق مواجهة الاستبداد الصدامي. ومن ثمّ هاجر إلى أستراليا و مازال مقيماً فيها يستمر في نشاطاته السياسية و الثقافية بعزيمة لا تعرف الكلل و الملل (القرني، ٢٠٠٨: ٣٠). لم يغب عن بال السّماوي ما يجري على الساحة العراقية فإنّه يهتمّ بمختلف القضايا الّتي تمسّ حياة العراقيين حيث انعكس في أشعاره المأساة الّتي شهدها العراق إثر الغزو الأميركي له كما تبلورت فيها المعاناة و المصائب الّتي حلّت بالشعب العراقي المنكوب عقب الاحتلال صدرت من السّماوي دواوين شعرية متعددة لقيت رواجاً كبيراً و ترحيباً حاراً من قبل القرّاء العرب (البدوي، ٢٠١٠: ١٢).

٢ . السَرفات: الدّبابات.

٣ . جمع القربان و هو ما يتقّربُ به إلى اللّهِ.

٤ . يستجدي.

٥ . المقصود بهم رجال الحكم و المسؤولون.

٦ . قرحٌ يحدث في مؤخّرة المصاب به لأسباب متعدّدة منها كثرة الجلوس.

٧ . في الأصل اسمان لطائرين و لكن المقصود بهما هنا ثروات البلاد و ممتلكاتها.

٨ بدأت فترة الغيبة الصغرى، بوفاة الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام عام ٢٦٠ هـ حيث كان عمر الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف خمس سنين تقريباً واستمرّت قرابة ٧٠ سنة حتى عام ٣٢٩ هـ حيث انتهت بوفاة السفير الرابع، وبداية الغيبة الكبرى (المصدر، ١٤١٦ ه.ق: ٩٧).

٩ . حيوان خرافي يشبه القردة في سرعة جريه و وثبه.

١٠ . مُعرَّب دو جين و هو يعادل ١٢ سنةً.

١١ . مرق السهم عن القوس: انطلق منها سريعاً. و المارقون تسمية وضعها الإمام علي (عليه السلام) على الخوارج لخروجهم عن الحقّ خروج السّهام عن القِسيّ. (ابن منظور، ١٤١٤ ه. ق ،٤، ٧٥٢)

١٢ . يذكر أنّه ليس لمعتصم العباسي شخصية إيجابية لدى شيعة ذلك لأنّ ملفّ أعماله وسجّل خلافته شأن سائر الخلفاء العباسيين حافل بالجرائم الفظيعة الّتي اقترفها ضدّ التشيع ورموزه. (الطبري، ١٤١٤ ه . ق، ١١/ ٢١٧) هذا والإشادة بالخلفاء الأمويين والعباسيين كائناً من كان تتنافى مع المعتقد الشيعي الذي يعتبرهم غاصبين وجائرين لحقوق الأئمة الطاهرين من أهل بيت الرسول (ع) (محمدي ريشهري، ١٤١٦ه. ق: ٣، ٣١٦).

١٣ . لقد أشار الشاعر إلى حادثة تأريخية وقعت في عصر معتصم العباسي من المعروف أنّه سمع أنّ إمرأة عربية اُستبيحت كرامتها وتعرضت للإساءة من قبل بعض الجنود الرّومان في مدينة العمورية الواقعة على الحدود الرومية فصاحت «وامعتصماه» فاندفع الخليفة نحو العمورية بجيش عظيم وفتحها تلبية لدعوة المرأة المستباحة كرامتها. فاشتهر الحادث وانتشر خبره في كافة الأقطار حتّى تناوله الشعراء في أشعارهم (الطبري، ١٤١٤ ه. ق، ١١/ ٢٢١) ولأبي تمام في هذا المجال قصيدة لامية معروفة مطلعها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ و الهزل (المجاني الحديثة، ٣، ٢٧٠).

١٤ . المطرود.

١٥ . الكاذب المفتري.

١٦ . الوضيع، النذل.

١٧ . المراوغون و أهل الرِّئا.

١٨ . فقع العين: سمِلها: أخرجها من الحدقة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- ابن منظور، جمال‌الدين محمد، (١٤١٤ ه. ق)؛ لسان العرب، بيروت: دار صادر.

٢- البدوي محمد، جاهين (٢٠١٠)؛ العشق والاغتراب في شعر يحيي السّماوي (قليلك لا كثيرهن نموذجاً) الطبعة الأولي دمشق: دار الينابيع.

٣- حسين محمد، محمد، (١٩٧٠ م)؛ الهجاء و الهجائون في الجاهلية، لبنان، بيروت: دار النهضة العربية.

٤- سماوي يحيي، (٢٠٠٨)؛ البكاء علي كتف الوطن، الطبعة الأولي، دمشق، حلبوني، التكوين.

٥- .....، (٢٠٠٨)؛ مسبحة من خرز الكلمات، الطبعة الأولي، دمشق، حلبوني، التكوين.
٦- .....، (٢٠٠٩)؛ شاهدة قبر من رخام الكلمات، الطبعة الأولي، دمشق، حلبوني، التكوين.
٧- .....، (٢٠٠٦)؛ نقوش علي جذع نخلة، الطبعة الأولي، دمشق، حلبوني، التكوين.
٨- .....، (٢٠١٠)؛ لماذا تأخّرتُ دهراً، دمشق: دارالينابيع.
٩- صدر، محمد، (١٤١٣ ه. ق)؛ تاريخ الغيبة الصغري، بغداد: دارالفكر.
١٠- القرني فاطمة، (٢٠٠٨)؛ الشعر العراقي في المنفي (السّماوي نموذجاً) الطبعة الأولي، الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية.
١١- محمدي ريشهري، (١٤١٦ ه. ق)؛ ميزان الحكمة، قم: دار الحديث، الطبعة الأولي.
١٢- معروف يحيي، (٢٠١٢ م)؛ دراسة وتحليل في المضامين الشعرية للشاعر العراقي يحيي السّماوي، مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة الثامنة، العدد الرابع عشر.
١٣- نظري علي وميرزايي، وعزيزي، (١٣٨٩ ه.ش)؛ اشغالگري در شعر امروزين عراق (باللغة الفارسية) (قضية الاحتلال في الشعر العراقي المعاصر) (٢٠٠٣ -٢٠١٠)، مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية و آدابها، العدد الـ١٦، صص ١٥٨- ١٣٧.